

آلية عمل القرآن ..

كانت العرب قبل الإسلام تعيش حياة بسيطة تعترىها الأمية والسذاجة والفوضوية و التخلف الحضاري ، وفساد في شبكة العلاقات والمنظومة القيمية ، فلم يكن لديها فلسفة أيولوجية أو فكرية خاصة بها حول الوجود والكون والغيب – إلا ما ندر من أتباع الحنيفية – تميزها عن غيرها من الأمم .

من الفكرة المجردة إلى سعادة الدارين

ولما جاء الإسلام دين الله الخاتم الخالد ونزل القرآن الحكيم ، استطاع أن يصيغ من عقائده وأفكاره المجردة حول الخالق وصفاته و الآخرة بأحداثها وتفصيلاتها (بعث ، حشر ، حساب ، جنة ، نار) ، والغيب بكل جوانبه ، استطاع أن يصيغ وازعاً دينيا عميقا متمثلا بالتقوى ويقظة الضمير ، وحاكما اجتماعيا متينا يعتبر ميزانا للسلوك الإنساني ، ودافعا نفسيا فاعلا (إرادة وهمة وإيجابية) نحو سعادة الإنسان والمجتمع في الدارين .

إن الإسلام القائم على الفكرة المجردة (عالم الغيب) متصل اتصالاً قوياً ومباشراً بعالم الشهادة ، بل و متوجه نحو إصلاحه وصياغة فرد و مجتمعه وحضارته ومدنيته

فليس الإيمان بالغيب بالفكرة المجردة عن واقع الحياة ومعاشها ، ولا بالعقيدة الخرافية – حاشاها – والخيالية التي لا تأثير لها في السنن والقوانين الاجتماعية ، كما إنها ليست بالروحانية الجوفاء المنعزلة الفارغة من التفاعل مع منظومة العلاقات الإنسانية ، ولكن بالتصديق الجازم المشفوع بالعمل الصالح بكل صوره ، والإنتاج الحضاري والعمراني بشق جوانبه .

قال تعالى في محكم التنزيل (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة

ومما رزقناهم ينفقون) البقرة (2-3) . فأول ما افتتح به من صفات المتقين الذين يهتدون بهدي القرآن : الإيمان

بالغيب بعمومه ، والذي يشتمل على كل العقائد وركائز الإيمان ، والمتمثل بالفكرة مجردة .



تلاها انفعال وتفاعل مع هذه الفكرة (غير الخاضعة للحس) ، وعمل وسلوك نحو الذات (إقامة الصلاة) ، و تجاه المجتمع (الإنفاق) .

إن الإسلام القائم على الفكرة المجردة (عالم الغيب) متصل اتصالاً قوياً ومباشراً بعالم الشهادة ، بل و متوجه نحو إصلاحه وصياغة فردة ومجتمعه وحضارته ومدنيته ، بالعلم النافع الفاعل والدين الطاهر النقي والفضيلة في أبهى حلة . فلا تعارض بين العلم والدين إذاً ، بل تكامل وتناسق وانسجام محكوم بعالم الغيب .

و الأمة الإسلامية الحققة لا تفرق ولا تعزل بين شؤون المعاش في الدنيا وأمور المعاد في الآخرة فهما مرتبطتان في عقيدتها وذهنها أوثق ارتباط ، كارتباط المقدمة بالنتيجة والعللة بالمعلول .

من إصلاح الضمير إلى صلاح شبكة العلاقات الاجتماعية

لقد استطاع القرآن بمنظومة عقائده وشعائره وقيمه ، وبتكامل وشمولية وانسجام نظمه وأفكاره ، تهذيب النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية في أصعب حالات انحرافها وفسادها وإحادها ، قبل أن يبني الحضارة والمدنية والعمران في أروى وأدنى حالات تأخرها وتخلفها ، إذ إن التغيير الحقيقي في المجتمعات والنظم وشبكة العلاقات ، إنما يبدأ من النفس البشرية بأمراضها ومعتقداتها وعالم أفكارها ، فلا غرو إذاً أن من الله على المؤمنين في محكم التنزيل ونسب الفضل لنفسه العلية في تحقيق أسمى معاني الأخوة بين أفراد الأمة المتناحرين على مر سنين وعقود حين قال : (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) الأنفال: 63 .

لقد ابتعثنا الله لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة



يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : لو أنفقت ، يا محمد ، ما في الأرض جميعا من ذهب وورق وعَرَض ، ما جمعت أنت بين قلوبهم بحيلك ، ولكن الله جمعها على الهدى فائتلفت واجتمعت ، تقوية من الله لك وتأيدا منه ومعونة على عدوك . يقول جل ثناؤه : والذي فعل ذلك وسببه لك حتى صاروا لك أعوانا وأنصارا وبدا واحدة على من بغاك سوءا هو الذي إن رام عدو منك مراما يكفيك كيده وينصرك عليه ، فثق به وامض لأمره ، وتوكل عليه ” . **تفسير الطبري** .

فانتظام شبكة العلاقات في لحمة متماسكة ونسيج واحد ، لم يكن ليكون لولا أن صهرت العقيدة الإيمانية كل الأعراق والأجناس و الألوان في بوتقة واحدة ، بوتقة الإيمان الصادق الراسخ ، الذي أذاب الشحناء والبغضاء والحواجز بكل أشكالها .

لقد وعى المسلمون الأوائل هدي **القرآن الكريم** و الفكرة الإسلامية جيدا ، وامتألت قلوبهم وعقولهم بها فتفجرت طاقاتهم وقدراتهم ووضحت أهدافهم وغاياتهم ومسالكهم ، وانطلقوا فاتحين في الأرض مبشرين ومنذرين يحملون هذه الرسالة التي صاغها وعبر عنها رباعي بن عامر - رضي الله عنه - عندما ذهب لرستم قبيل معركة القادسية الفاصلة قائلا : [لقد ابتعثنا الله لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة] .